افتتاحية العدد: هل يمكن للمنهج أن يكون محايدًا؟

بقلم رئيس التّحرير:
أ.د عبد الرزاق بلعقروز

ارتبطت التحولات النَّوعية في تاريخ العلوم بالتَّحوُّل الذي يحصل في المنهج وطرائق التَّفكير وإجراءات الفعل، وما عُرِفت ثقافة من الثقافات، إلا بالمنهج المخصوص الذي جاءت به إلى دوائر المعرفة نقدًا وتجديدًا، وبيان هذا الإقرار يتَّضح في خصوصية كل ثقافة من الثقافات بقطاع منهجي بارز. فالثقافة الشَّرقية غلب عليها الحدس والتذوُّق الوجداني والاستكشاف الجمالي لحركة الوجود، والثقافة اليونانية طوّرت مع أرسطو الآلة المنطقية التي ابتغت تحصين العقل من الوقوع في الزّلل، في حين اختصَّت الثقافة الإسلامية بتطوير علم الأصول العقلي، بغرض تقنين فعل الاجتهاد، أما الثقافة الحديثة فقد كَسَرت مطالب المنطق الأرسطي، وانفتحت على الثقافة الإسلامية في روحها التَّجريبية، كي تصوغ مقالة جديدة في المنهج، أو الخطاب مثلما هو معروف مع روجر بيكون ورونيه ديكارت وفرانسيس بيكون. وهذا الوصف الملازم لحركة العلوم يؤكّد الأهمية الحاسمة للمنهج في تطوير المعرفة وتنظيم السُّلوك، فالمنهج ليس مجرد طرائق نظرية؛ إنما هو كذلك أسلوب في إدارة العمل وتنظيم الحركة الاجتماعية، أي أنه نظر تقنيني للمعرفة ورسم توجيهي للفعل. ولأنه هكذا؛ فإن المنهج ليس مجرّد الإجراءات التَّقنينية منفصلة عن المستويات الأعلى في التَّفكير، أي النّظام المعرفي الكلي، الذي يغذّي المنهج ويقوي دوره ويرسم طبيعة حركته، إنما هو يرتكز على نموذج معرفي كلي، ولأجل هذا، كانت هناك مناهج تابعة لطبيعة المذاهب الفكرية التي نشأت في رحمها، والأقوى أنّها تستمدُّ منها خصوصيتها الإجرائية وحدودها البحثية وعلاقتها بغيرها من المناهج. فالمذهب إذن هو روح المنهج. والشَّواهد التي تحسم هذه المسألة متكثّرة منها في السياق الفلسفي الغربي: ترابط منهج النَّقد عند إيمانويل كانط بروح الفلسفة النقدية التي بلورها، وترابط منهج الجدل عند هيجل بروح الفلسفة التي تسري فيها حركة التناقض، أما في سياق المنهجية الإسلامية فإن علم الأصول كان قد استمدَّ خصوصيته الإجرائية من

الطَّابع الكلي للتَّشريع الإسلامي، ففيه البعد اللّغوي واللّساني، نظرًا لأن الصّلة بين المُشَرع والمخاطب هي صلة إبلاغية تواصلية، وفيه البعد الحجاجي والبعد التّداولي؛ واستصحب داخل هذا النَّسق البعد المنطقي أيضًا، للاشتراك في المحدد اللغوي بين المنطق والأصول. كما ساد المنهج التَّجريبي بقوة في سياق الثقافة الإسلامية نظرًا للبنية العملية والوعي بفكرة اللَّاتناهي في الأفعال الإنسانية.

يتبيّن مما تقدم، أن المنهج هو سمة الثقافة، وأن المنهج في علاقة تأسيسية مع النّظام المعرفي أو الروح الثقافية التي تخلق فيه السّمة وتطبعه بسيماتها الكبرى. وهنا، لا بد من صرف القول إلى دفع اعتراض قد يرد حول هذا الإقرار بخصوصية المنهج، فقد يعترض معترض قائلًا: إن المنهج لا يتعالق مع المذهب أو الرؤية الكلية، بل هو فكر طبيعي يقوم بفعل تنظيم المعرفة وألا هوية للمنهج في سياق تطوير العلوم وتجديد الأفكار. وللإجابة عن هذا القلق المعرفي، يجب أن نصرف سعينا إلى مستوى من الوعي المنهجي المطلوب، **وهو الوعي بين إنزال المنهج وبين توظيف أدوات المنهج**، فالأدوات البحثية تتطوَّر وتتجدَّد كما هو الأمر في عالم الوسائل المادية، ولذا وجب الابتكار أو الاقتباس ممن يمتلك هذه الأدوات، وهذا هو القصد **بتوظيف المنهج**، وهذه الممارسة هي عريقة في تاريخ الثقافة الإسلامية، وبيان هذا الأمر، أنَّ العلوم الحكمية والفلسفية التي يعد المنطق هو آلتها جميعًا، قد جرى تشغليها في إخصاب العلوم الإسلامية، كما جرى الوعي بحدودها أيضًا، فإذا كان الغزّالي قد شغّل الآلة المنطقية اليونانية ونوَّع من استخداماتها، فإن ابن تيمية قد كاشف حدود المنطق اليوناني ببيان حدوده وتجذّره في النظام اللغوي اليوناني. وهذا التوتر في تلقي المنطق اليوناني قد أضاف تبلور اتجاهات فلسفية خصبة ونشوء تنافس وتباري فلسفي منتج. وأما الاعتراض فهو على **الإنزال المنهجي**؛ من غير جهد تفكيكي وتركيبي، وهذه الظاهرة لم تكن قوية الظهور في الثقافة الإسلامية التاريخية، بل هي وليدة حركة الحداثة التي أثَّرت في النُّخبة الثقافية التي لم تكن تملك الصفاء في الوعي بالإسلام كنظام معرفي ومنهج تطبيقي، وبالتالي فظاهرة الإنزال المنهجي هي ظاهرة حديثة، تجد أسبابها النفسية في إيقاف قدرة العقل على الإبداع والاجتهاد. والاعتقاد أن المناهج المعرفية الغربية هي نتاج البحث العلمي الموضوعي كما كان يعتقد بعض المروجين للفلسفة الماركسية من أنها علم ومنهج خالصين.

إذن، فحقيق بنا تصريف القول إلى إقامة الفرقان بين الوعي بالمنهج الذي يستفيد من الأدوات الجديدة في التَّفكير وفي البحث، **وبين الإنزال المنهجي** الذي لا يفرق بين سياق بحثي مخصوص وسياق آخر، وما صلح في هذا السياق قد يصلح في سياق آخر.

إنَّنا في هذا العدد الجديد من مجلة «نماء

لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية»، نبتغي أن يتحقَّق العقل المسلم المعاصر بفكرة الوعي بالمنهج كروح وكإجراءات وكانفتاح على المنهجيات المتوافرة في الثقافة الغربية، حيث يمكن لنا رسم ملامح الوعي بالمنهج من خلال ما يلي:

- الوعي بالمنهج كرؤية كلية أو كروح تسري في هيكل التَّفكير وإجراءات التَّطبيق، وأنّه بقدر ما يرتكز التّفكير المنهجي على هذه الرؤية بقدر ما يتجدَّد ويثمر ويبدع.
- الوعي بالمنهج كنظام معرفي فكري، وليس كمقولات دينية خالصة، فتحويل مفردات المنهج الإيمانية إلى أدوات في التفكير وفي التَّحليل وفي التركيب، يعد مطلبًا علميًّا ومطلبًا عمليًّا أيضًا.
- الوعي بالمنهج في التراث الثقافي الإسلامي، لأن ثمة جهودًا منهجية لافتة تنتظر العقل المبدع الذي يعيد تكييفها في سياق التحديات المنهجية الجديدة، والمطلب هو استخراج صورة المنهج أو كيف كان علماؤنا يبنون مناهجهم وكيف كانوا يضعون الأدوات باعتبارها البناء في معمار العلم والعمل.
- الوعي بالمنهج من خلال التَّواصل الإيجابي والخلَّاق مع الثقافة الغربية في حقولها البحثية، ولن تنتج هذه المناهج أو تثمر في تطوير علومنا ما لم تكن بيّنة المعالم ومستقيمة تتكامل مع بنية العلوم الأخرى.
- الوعي بالمنهج ليس مطلبًا نظريًّا خالصًا، بل هو ما نَعْبُر به إلى الفعل، فالغرض من المنهج هو رسم مسالك التَّفكير، ومسالك التّدبير أيضًا، فالإحكام مقولة منهجية علمية، ومقولة عملية أيضًا، فإذا كان إحكام المنهج هو الطريق إلى الاكتشاف العلمي وتطوير الأبحاث، فإن إحكام الفعل هو الطريق إلى العمران ورئاسة الإنسان.

ونظرًا لهذه القيمة الحاسمة لإشكالات المناهج في العلوم الإسلامية، جاء هذا العدد حافلًا بمقالات بحثية تشتبك تحليلًا ونقدًا مع هذه الإشكالات المنهجية في العلوم، حيث يطالعنا الدكتور عبد الكريم القلالي بنص عنوانه «**مداخل التّجديد الكلامي: نحو رؤية تجديدية تكاملية**»، نادى من خلاله بأهمية تطوير الدَّرس الكلامي بما يحقق الحاجات الحضارية للإنسان المسلم اليوم من حيث الموضوعات والتحديات. أما الدكتور محمد عبد النور فقد فتح حوارًا تواصليًّا مع النص الاستدلالي الخلدوني، الذي بدا له مفتاحًا لعلاج أزمات المعرفة الحديثة التي لم تعِ قيمة الشَّأن الإنساني والديني، حيث جاء عنوان نصّه «**ابن خلدون وتأسيس الاستدلال في الثقافة الإسلامية أو كيف يمكن استعادة ابن خلدون راهنًا؟**». كما تعرّض الدكتور خالد زهري في ورقته الموسومة بـ«**هل صنّف ابن رشد الحفيد في علم الكلام الأشعري؟**» **مناقشة لرؤية نقدية. إلى مكاشفة حدود ورقية بحثية أخرى** ناقشت مسألة العلاقة بين ابن رشد والمذهب الأشعري وبالدعوة

الموحدية. بينا جاء نص الباحث يوسف عكراش حاملًا عنوان «**الأسس المعرفية والمنهجية لدراسة المصطلح القرآني**» داعيًا فيه إلى الوعي المنهجي بالمصطلح القرآني وانتهاج المسلك الذي سطّره القرآن الكريم في بناء المفاهيم وتجديد التصورات. كما أكد الباحث على أهمية الذوق المصطلحي وفق المنهج القرآني رؤيةً ومنهجًا. أما الباحث ياسين عميمي في نصه البحثي الموسوم بـ«**الاستدلال الحجاجي قي النص القرآني**» فقد رام لفت الانتباه إلى أن تطوير حجاجية قرآنية قضية لازمة وممكنة، لأن روح الخطاب القرآني تراعي تفاوت الطّبائع وتعدد الأفهام، وهذا برأيه ممكن من خلال التداخل بين اللسانيات والمنطقيات. فالمسلك المنهجي هو إخصاب الخطاب الطبيعي بتقنيات الخطاب الصناعي. كما تضمن الملف أيضًا نصًّا آخر للباحث خالد بشير، موسومًا بـ: «**نشأة المعرفة الانتثربولوجية في الحضارة الإسلامية» من خلال مساهمة كتابات الرحالة**، والمرامي المنهجية للبحث من الناحية الابستمولوجية هي تحرير المعرفة الانثربولوجية من الأطر والقوالب السَّائدة، ويعد أدب الرحلات نموذجًا على ممارسة أنثربولوجية رامت اكتشاف الآخر وفهم بناه الثقافية، كما كان للإسلام -حسب رأي الباحث- دور ثقيل في هذا الجهد العلمي تأسيسًا وتوجيهًا. وأما بحث الدكتور الحسَّان شهيد، الموسوم بـ«**إشكال المفهوم بين سلطان المعنى وعصيان المبنى**» فقد تعرّض لمشكلة معرفية في غاية الأهمية، مفرقًا بين المصطلح الذي يؤدي وظيفية جزئية في حقل من حقول العلوم، وبين المفهوم الذي يتعدَّى هذا الطور إلى طور الإنسانية والقيمية والأخلاقية.

أما المقالات خارج الملف، فهي ثلاثة توزعت دوائر اهتماماتها بين قضية الدّولة والإشكال السياسي وسؤال النّقد، حيث ناقش د. محمد أمزيان في نصه الموسوم بـ«**بنية الدولة: مجالها في الاجتماع السياسي الإسلامي: الأمة الواحدة والدولة الجامعة: نحو مقاربة تأصيلية**»، اعتبر من خلاله أن الرَّابطة الإيمانية هي روح الأمة، والشكل السياسي يتمظهر في الدَّولة ذات الطابع القانوني، وفتح نقاشات ضمن هذه الترسيمات الفكرية. في حين ناقش مقال الدكتور هشام شرّاد «**مشروع علمنة السياسة وتأسيس الدولة المدنية في الغرب المسيحي من خلال اللفياثان لتوماس هوبز**»، مستخلصًا أن هذه الرؤية الفلسفية تؤسس لسياسة الخروج من السلطان الديني إلى السلطان السياسي المتمثل في الدّولة القانونية العلمانية. وغير بعيد عن إشكالات الفلسفة الحديثة ناقش الباحث: مراد الكديوي موضوع: **سؤال النّقد عند كانط: بين الدّوافع الدينية والدوافع الابستمولوجية**، معترضًا على الفكرة السائدة حول منزلة الدين عند كانط، فالباحث يرى أن المسألة الدينية هي السؤال الذي يخترق كل المشروع الكانطي وليس مسألة هامشية استراح فيها كانط من حقبة النقد بلحظاته الثلاثة.

كما تضمّن العدد فضلًا عما أُشِيرَ إليه، مراجعة لكتاب مترجم عنوانه: «**سؤال الاعتراف في الفلسفة الاجتماعية والسياسية المعاصرة**» لمجموعة مؤلفين ترجمه الكاتب الجزائري كمال بومنير، وراجعته الباحثة مريم ضربان.

وحوى العدد أيضًا ترجمات في غاية الأهمية، أولاها نص «**المعتزلة في عصر ابن رشد**»، لجيرور شفارب، أنجزه: د. يوسف مدراري، والثاني نصّ موسوم بـ: **العلم والفلسفة والدين: أبرز أزمات الفلسفة المعاصرة، للشيخ أنتا ديوب**، ترجمه الباحث عبدو عبد القادر، والثالث: **أصول علم الكلام** لمايكل كوك، ترجمه الباحث محمد خضر.

كما تضمن هذا العدد حوارًا مع المفكر «الطيب برغوث» من النرويج؛ حول سمات المنهجية السننية وأوجه الحاجة إلى التكاملية المعرفية وتجديد الأدوات العلمية والوعي بالحاجة الروحية للإنسان المعاصر.

ونحن في مجلة نماء نبتغي دومًا تطوير الأبحاث الفكرية التي تقيم الحوارات الجدلية بين المعارف، إيمانًا منا بأن المعرفة المجزَّءة والمنفصلة لا تجيب عن أسئلة هذا الزمان، في حين أن الحوار الجدلي بين المعارف والإخصاب المتبادل بين المفاهيم، هو الذي يُقَوي العقل، ويطلقه من قيود المرجعيات الجزئية التَّاريخية التي تريد أن تهمين وتسود، فمعيار التَّكاملية بين علوم الوحي وعلوم الإنسان الذي تسعى مجلة نماء إلى تطويره، هو الذي يخلق التّجارة الفكرية التي مبناها التنافس والتَّباري والتَّواصل الإيجابي، ويلبي حاجات الإنسان المحسوسة المعاصرة التي باتت تباين الحاجات التاريخية الموروثة، ولأجل هذا، فإن المجلة موقع مفتوح أمام المفكرين والباحثين بغرض الإسهام في هذا المشروع الحي، الذي هو الطريق الأسلم لتحرير العقل من سلطة المرجعيات التاريخية الجزئية وسلطة الأفكار المنقولة من غير وعي نقدي حصيف بها.

وقبل إقفال القول في هذه الكلمة الافتتاحية لا بد من توجيه الشُّكر الجزيل إلى أعضاء هيئة التَّحرير الذين أسهموا في بناء هذا العدد، من خلال تحكيماتهم الرصينة وتوجيهاتهم الذكية إلى الباحثين، كما نشكر الأساتذة الذين تعاونوا مع المجلة في التَّحكيم، وأسهموا بقسط جليل في إنجاح هذا العدد. والشكر أيضًا لمجموعة المنسقين والمحررين والمصممين الذين لولا جهودهم المخلصة لما خرج العدد بهذا الإخراج الجميل الذي يسرّ النّاظرين والباحثين. فالشكر لكم جميعًا وأتمنى أن نبقى دومًا في خط البناء الثقافي للعقل المسلم خاصة أن طبيعة التحديات التي نواجهها هي تحديات ثقافية في روحها. وبالتالي فعلاجها خارج دائرة الثقافة هو فهم غير نافذ لطبيعة الإشكال.